قراءات ومراجعات

مراجعة لكتاب
الرؤية الإسلامية للتنمية في ضوء مقاصد الشريعة*
تأليف: محمد عمر شابرا**

عبد السلام أحمد أبو سمحة***

يرتبط النمو والتطور الإنساني والاجتماعي بقضية التنمية، فهي قضية محورية مهمة في رفعة أي تجمع إنساني حضاري. والحديث عن الضرورات الإنسانية في ظل تباين النظريات المقدمة في استحداث التنمية أمر غاية في الأهمية. وتبرز هذه الدراسة بوصفها واحدة من الدراسات المهمة في الرؤية الإسلامية لمفهوم التنمية، لا سيّما عند النظر إلى البُعد المقاصدي للموضوع، حيث يتجاوز مفهوم التنمية في هذا البعد نظريات الملكية الفردية المطلقة، ونظريات الملكية الجماعية. ومن هنا كان اعتماد المؤلف في نظرته للتنمية الاقتصادية الإسلامية على مقاصد الشريعة، التي جاءت بجملتها تحقق الرخاء والرفاه البشري.

جاءت هذه الدراسة في مقدمة وفصلين؛ أما المقدمة فتحدث المؤلف فيها عن النظريات المختلفة في التنمية، ومرّ مروراً سريعاً بالمقاصد الشرعية في توطئة مهمة بين يدي الموضوع، ثم خصص الفصل الأول للحديث عن مقصد واحد من مقاصد الشريعة؛ حفظ النفس. واشتمل الفصل الثاني على بقية المقاصد، في تقسيم يبدو للوهلة الأولى غير متوازن، لكن بإمعان النظر نجد قدرة مذهلة لدى المؤلف في تلمس المقصد الأساس

---

* شابرا، محمد عمر. **الرؤية الإسلامية للتنمية في ضوء مقاصد الشريعة**، واشنطن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.

** مستشار البحوث بالمعهد الإسلامي للبحوث والتدريب بمجموعة البنك الإسلامي للتنمية- جدة.

*** دكتوراة في الحديث الشريف وعلومه، أستاذ مشارك في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي، مساعد الأمين العام للندوة الدولية للحديث الشريف. البريد الإلكتروني: abusamhaa@yahoo.com

تم تسلّم المراجعة بتاريخ ٢٠١٤/٤/١٢م، وقُبلت للنشر بتاريخ ٢٠١٤/٦/١٤م.

في التنمية الاقتصادية وهو النفس الإنسانية، فأولاها الاهتمام، ذلك أن الغاية العظمى من التنمية المحافظة على النفس والرقي بها في معارج البناء والتنمية، وصولاً لتحقيق غاية الحفظ، ومن ثم تتحقق بقية المقاصد تباعاً.

كشف المؤلف في مقدمته عن سعي البشرية للرفاه الإنساني؛ فالشريعة الإسلامية – في مقصدها الأسمى– جاءت لتحقيق الرحمة للبشرية جمعاء وفق نظرية الوحي المحققة للعدالة الإنسانية، وهذا حال الأديان جميعها من حيث التنزل من غير تحريف ولا تبديل، أما ما يسمى بالنظريات التنويرية فقد رصد لنا المؤلف كيف سعت، ومن نظرة مختلفة، لتحقيق الرفاه البشري؛ فمقياس الرَّفاه في النظرة العلمانية المادية هي ارتفاع الدخل والثروة، الأمر الذي خالفه كثير من علماء الدين وفلاسفة الأخلاق ببيان أهمية الجوانب الروحية غير المادية، وساعدهم في ذلك فشل النظرة المادية في تحقيق الفلاح البشري المنشود.[١]

لامس المؤلف منحى مهماً كان سبباً في بُعد الاقتصاديين بوجه عام عن الخوض في الحاجات المختلفة لتحقيق الرّفاه الإنساني، ألا وهو الخوف من البُعد القيمي، الذي تحتم أحكامه الحدّ من المكاسب المالية، وارتفاع الدخل، وتضخم الثروة.[٢]

وفي مقابل هذا وضّحت الدراسة ما تميزت به الرؤية المقاصدية الإسلامية للتنمية، التي تبنّت النظرة الشمولية للفلاح الإنساني، فلا تسعى الرؤية المقاصدية لتحقيق الثروة دون إشباع الحاجات المختلفة للإنسان، وإنما تحقق ذلك في إطارٍ قيميٍ يُعدّ الضمانة الحقيقة للفلاح والتنمية الدائمة الواقعية، وليست التنمية الجزئية التي تحصر الثروة بأيدي قلة من الناس، ويعيش المجتمع بأسره في فلكها.[٣]

بهذا التوصيف الدقيق أبدع المؤلف في توطئته للتنمية والرؤية الإسلامية لها. وتحدث بإيجاز عن مقاصد الشريعة، التي نالها نصيب طيب في المقدمة، وكشف عن دور الغزالي(توفي٥٠٥هـ) فيها، وتصنيفها في خمسة هي: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال، مبيناً أهمية الحركة فيها، وعدم إبقاء ما تحقق منها على وصفه الراهن، بل

[١] شابرا، **الرؤية الإسلامية للتنمية في ضوء مقاصد الشريعة**، مرجع سابق، ص٧–١١.

[٢] المرجع سابق، ص٧–١١.

[٣] المرجع سابق، ص٧–١١.

لا بدّ من إغنائها، في إطار تحقيق الفلاح الإنساني، لأجل ذلك مال المؤلف إلى ترتيب الرازي(توفي٦٠٦هـ)، والشاطبي(توفي٧٩٠هـ) لهذه المقاصد بتقديم حفظ النفس على ما سواها، وقد عدّ المؤلف ذلك أكثر منطقية في الحديث الملاصق للتنمية المستدامة. من هنا كان وضع النفس البشرية في المرتبة الأولى في مقاصد الشريعة في التنمية.[٤]

تخصص الفصل الأول من الكتاب في موضوع تقوية النفس البشرية. والفصل الثاني في إثراء الدين والعقل والنسل والمال. ونلاحظ تركيز المؤلف على المقصد الأول بإفراد فصل كامل له.

تفنن المؤلف في عرض آلية الشرع في تحقيق التنمية المستدامة، ورفع مستوى فلاح النوع البشري، ليشغل الدور المنشود في العهدة الاستخلافية له على وجه هذه الأرض، جاء ذلك في الفصل الأول؛ تقوية النفس البشرية، والذي جاء بدوره مشتقاً من المقصد الأول من مقاصد الشريعة الإسلامية وفق ترتيب الرازي والشاطبي. ولعل المواءمة بين مصطلحي: "حفظ" و"تقوية" تحتاج إلى وقفة تأمل من المؤلف، والظاهر أنه آثر أن يتركها للقارئ ليغوص في مرامي هذه المفردة المشتقة من واقع هذا المقصد العظيم، فالحفظ لا يتصور للنفس البشرية إلا إذا قويت فيها عوامل الثبات والاستمرار والتقدم، لأجل ذلك كانت هذه المفردة أقرب إلى التنمية من كُلّية الحفظ وإن كانت تُحَقِّقها، فتقوية النفس البشرية تضمن استدامة الفلاح، ضمن إشباع الحاجات المتعددة المتنوعة لها، فما هي هذه الحاجات المهمة في تقويم مصالح الشخصية الإنسانية التي تنشد التنمية والرفاه والفلاح؟[٥]

كانت الكرامة واحترام الذات والأخوة والمساواة الاجتماعية من أوائل الحاجات التي لا بدّ منها في تشكيل المصلحة الشخصية الإنسانية، فالذات الإنسانية في المنظور الإسلامي النقي الصافي ذاتٌ محررة من كل عيب روحي، سليمةٌ خالية من كل ميراثٍ لم تشارك فيه ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم: ٣٠)، فالإنسان خلق

[٤] المرجع السابق، ص١٢-١٦.

[٥] المرجع السابق، ص١٢.

بطبعه مكرماً بإنسانيته وبشريته وأصله، تنفيذاً لدوره العمراني الذي أوجده الله لأجله، وهذا ينعكس بالضرورة على فلسفة النظرة المتساوية بين بني البشر، التي تترجم إلى تعايش سلمي يستخدم فيه الأكفأ والأمثل. ثم أحسن المؤلف في عرض النظريات الأخرى التي تعدّ وجود الإنسان على ظهر هذه الأرض مكبلاً بذنبٍ لم يشارك فيه، فكل مخلوق يخلق مذنباً، وهذا ما يسمى بمفهوم "الخطيئة"، أو "المذنب بالولادة"، وهذا مفهوم ينتقص من الكرامة الإنسانية في أصل تكوينها. وعرض المؤلف أيضاً لنظريتي: الحتمية، التي تنفي عن الإنسان المسؤولية، والوجودية، التي ترخي العنان للحريات المطلقة دون قيم أو قوانين، وكيف ساهمت هاتان النظريتان في هدر الكرامة الإنسانية، فلا معنى للإنسان بلا مسؤولية، أو ضابط قيمي يضبط فيه عنان تصرفاته، وهذا ما حققته النظرية الإسلامية المعتمدة في أصلها على الوحي.[٦]

ونبه المؤلف إلى أهمية العدل بوصفه من المصالح المهمة التي لا بدّ من تحقيقها، حتى تتوفر الكرامة والذات الإنسانية، فلا يمكن للبشرية في مراقي فلاحها ورفاهها أن تتقدم دون العدالة الاجتماعية والاقتصادية، وهذه المهمة الأساسية للرسل والرسالات ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد:٢٥)، وقد ركزت الرؤية الإسلامية من خلال الوحي بشقيه الكتاب والسنة على الأسباب الموجبة للعدل، وذمّت، في المقابل، الظلم الذي يُعدُّ كفيلاً بإحباط الجهود الرامية إلى تحقيق الأمن والتنمية المستدامة والتضامن الاجتماعي، بل يتعداه إلى حتمية الصراع بين النوع الإنساني. فالعدل ضامن لذلك كله ضمن جملة من القيم السلوكية من الأمانة والإنصاف وغيرها مما مرّ بها المؤلف مروراً سريعاً.[٧]

ولفت المؤلف الانتباه إلى أهمية الارتقاء الروحي والأخلاقي،[٨] ودورهما في تحقيق مصالح الجميع، وأهمية المحفز لهذا الارتقاء، الأمر الذي ركزت عليه الشريعة الإسلامية في

[٦] المرجع السابق، ص١٨-٢٤.
[٧] المرجع السابق، ص٢٤-٢٨.
[٨] المرجع السابق، ص٢٨.

رؤيتها لبناء الذات الإنسانية، وهذا لا شكّ في أنه عامل من عوامل الحفاظ على النفس والمال والعرض؛[٩] فالحياة -كل الحياة- محترمة، لا يحق لأحد المساس بها، أو تهديدها.

ويربط المؤلف بين تنمية الشخصية الإنسانية والحرية ربطاً محكماً،[١٠] فلا مبادرة ولا دافع للإبداع والابتكار، ولا تحقُّق للتنمية والفلاح دونها، من هنا وجدنا رفع الأغلال المكبلة للإنسان ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، وهذه الحرية مقيدة بالقيم الأخلاقية، ضماناً للفلاح الذي يعمُّ جميع المخلوقات. وقد ماز الله الإنسان وهو يمنحه الحرية بهبات ثلاث؛ أولها الضمائر وهي الفطرة السليمة ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٣٠)، ولما كان الإنسان بطبعه ينحرف عنها ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ (التين: ٥)، أرسل الله الرسل فكانت الهبة الثانية في هدايتهم، هذه الهداية وهذا الإيمان يحتاجان إلى آلة التصديق والتكليف، فكانت هبة الله الثالثة وهي العقل؛ إذ يتمكّن الإنسان -من خلاله- من استخدام حريته وفقاً لفطرته، وهدي رُسُلِ ربه.

ويكشف المؤلف عن دور التعليم في إثراء العقول،[١١] وهو أمرٌ غاية في الأهمية في تحقيق المصلحة الشخصية الإنسانية، فكلما ارتفعت دائرة التعليم الذي يبصر الناس بالقيم، وطرق أداء وظائفهم، ويوسع لديهم القاعدة المعرفية، ارتفعت بوادر التنمية، وزاد منسوب الفلاح الإنساني، وكلما غاب التعليم عاش الإنسان في تخلف عن هذا كله.

وتعكس رؤية المؤلف أهمية بالغة وهي تتحدث عن دور الحوكمة الرشيدة في إدارة التنمية،[١٢] فهي الكفيلة بإنفاذ القواعد السلوكية، والسعي بالمجتمع نحو الاستقرار وضمان عدم تجاوز القوانين، وإلا عمَّ الفساد، وضاعت الحقوق. من هنا وجدنا المؤلف، عطف

[٩] المرجع السابق، ص٢٨.
[١٠] المرجع السابق، ص٢٩-٣٢.
[١١] المرجع السابق، ص٣٢.
[١٢] المرجع السابق، ص٣٣.

على هذه النقطة المهمة جملةً من الأسباب المؤدية إلى تقوية الشخصية الإنسانية، التي يكون للحوكمة الرشيدة أثر بالغ فيها؛ فالقضاء على الفقر واشباع الحاجات[١٣] واحدة من البدهيات الملازمة لتحقيق الكرامة الإنسانية، وبه تتقوى الشخصية الإنسانية. وضمان فرص التوظيف والتوظف الذاتي من المقاصد المهمة أيضاً في تقوية الشخصية، التي غايتها جعل الإنسان قادراً على اكتساب رزقه، فمن فروض الكفاية على المجتمع توفير الفرص المناسبة لكسب أبنائه العيش الكريم، ولا يكون ذلك ولا يتحقق إلا بالتوزيع العادل للدخل والثروة،[١٤] فقد نهى الإسلام عن جعل المال دولة بين الأغنياء ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ (الحشر: ٧). فمن الكرامة الإنسانية عدم حصر الثروة في أيدي فئة محدودة من البشر، بل لا بدّ من مقاومة سبل الفقر وذلك بالتوجه إلى تأهليهم إنتاجياً، لا أن يبقوا في حاجة الآخرين.

ويبين المؤلف دور الزواج والحياة العائلية المستقرة المستندة إلى ما سبق من عناصر مهمة في إنشاء الأجيال القادمة، التي يعوّل عليها كثيراً في اتمام البناء التنموي، والاستمرار في الفلاح الإنساني، فالأسرة والتضامن الاجتماعي واحدة من أهم عوامل قوة الشخصية الإنسانية؛ إذ يتساوى الزوجان في الأسرة من حيث التكليف والقيمة الإنسانية، وينفرد كل واحد منهما بالمسؤوليات المنسجمة مع تكوينه الخلقي.[١٥] وتحقُّق هذا كله لا شك يؤدي إلى الحد من وقوع الجريمة، التي لن يكون لها مبرر، وبالمحصلة لكل ما سبق يتحقق السلام العقلي والسعادة التي يبحث الجميع عنها.

إنّ الرّفاه الإنساني والفلاح البشري لا يتحققان في تنمية مستدامة حينما يقتصر على مقصد حفظ النفس، وعوامل تقويتها، بل بالارتباط المباشر ببقية المقاصد الأخرى؛ من هنا أفرد المؤلف الفصل الثاني من كتابه ووسمه بـ: "إثراء الدين والعقل والنسل والمال". وبيّن المؤلف أهمية الدين وحفظه وحلوله في المرتبة التالية للنفس في الحديث عن الرؤية

[١٣] المرجع السابق، ص٣٣-٣٧.
[١٤] المرجع السابق، ص٣٨.
[١٥] المرجع السابق، ص٤٣.

المقاصدية للتنمية، ففي عالم تتنازع عليه النظريات العلمانية والمادية، كان لا بدّ من إبراز المنظور الديني للعالم بعد فشل النظريات الأخرى في جلب الرّفاة والفلاح للبشرية، ذلك أن مقومات هذا المنظور تؤهله لأن يتمتع بكل الإمكانات لإصلاح النفس الإنسانية، فهو منهج رباني المنشأ، يدرك تنوع حاجات الإنسان الروحية والمادية فلا يطغى جانب على جانب، ويسعى بنظرة متكاملة لبلورة المفهوم الحقيقي للحياة ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ (الأعلى: ١٤-١٥)، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٩-١٠)، فالدين له دور مهم في إصلاح البشر، ولا يمكن لأيّة نظرية أن تؤدي ما يؤديه الدين في نفوس العالمين.[١٦]

وطوّف المؤلف -في إطار المنظور الديني- في حلقات يسلم بعضها بعضاً لا بدّ من تراصها حتى تؤتي أُكلها في تحقيق الفلاح الإنساني الشمولي، الذي تعم آثاره كل من وجد على هذه الأرض؛ فتحدث عن أهمية وجود القيم والقواعد السلوكية،[١٧] وضرورة مراعاتها من كل الأفراد، والالتزام بها. ولإنشاء هذه القواعد لا بدّ من طرف خارجي يتمتع بالحياد، ذلك أن التجربة الإنسانية فرضت قيم المنتصر تارة، وقيم الأقوى اقتصادياً تارة أخرى، وقيم أصحاب المصالح، فالطبقات المسيطرة اجتماعياً أو اقتصادياً أو فكرياً تفرض من القيم ما يعزز مصالحها، من هنا كانت فلسفة الرّسالات السماوية، التي أرسلها الله سبحانه وتعالى لخلقه بإقامة منظومة قيمية مستندة إلى الدين الحق من الله الخالق سبحانه وتعالى. وتحتاج مراعاة هذه القيم إلى تحفيز سليم يُقيمُ في النفس عوامل احترام هذه القيم ومراعاتها. من هنا ربطت الشريعة الإنسان بامتداد حياته إلى العالم الآخر، فلا يقتصر تفكيره على هذه الدنيا، بل هو ممتد إلى ما بعد الموت في الحياة الآخرة، وبين يدي هذا قدمت الشريعة أنواعاً من الترغيب والترهيب على الأعمال تشكل حافزاً مهماً في الالتزام القيمي،[١٨] وهذا أمر غفل عنه الاقتصاديون العلمانيون، أو تغافلوا عنه، وكان للتعليم دور مميز في كل هذا الشأن.[١٩]

[١٦] المرجع السابق، ص٤٧-٤٩.
[١٧] المرجع السابق، ص٥١-٥٢.
[١٨] المرجع السابق، ص٥٣.
[١٩] المرجع السابق، ص٥٤.

يحتاج المنظور الديني في تحقيقه للتنمية المنشودة وفق المنظومة القيمية الإسلامية تهيئة بيئة داعمة للبر والتكافل الأسري والاجتماعي،[٢٠] ذلك أن الحياة العملية اليومية تتكفل في ترسيخ هذه المنظومة، إن ساعدت البيئة الكاملة على ذلك؛ إذ إنّ غياب هذه البيئة يضعف القيم ولا يصلح معها تحفيز، من هنا ندرك سر العبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج، وندرك حرص الإسلام على ثقافة المجتمع المستمدة من تعاليمه، وندرك من خلالها كيف بنى الإسلام انتماء الفرد للمجموعة، مع الإبقاء على حبه لذاته، فلا يطغى جانب على جانب، فلا الفردية المصلحية مقدمة بأنانيتها المعهودة في فكر الاقتصاد الجزئي، ولا الكُلية المطلقة في نظريات الاقتصاد الكلي السالبة للملكية الفردية، بل التوازن في ظل هذه البيئة الداعمة. ولما كان من طبع الإنسان أن يتمرد، وكان من غير المتوقع أن يلتزم جميع الأفراد بهذه المنظومة، كان لا بدّ من قيام دولة[٢١] تتحمل المسؤولية الأخلاقية والقانونية لضمان العدل والفلاح لأفراد المجتمع "إن الله ليزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن". وحتى لا تتحول الدولة إلى دولة مستبدة، لا بدّ من وجود ضوابط وتوازنات فاعلة توجّه الدولة، تتمثل في عدد من المؤسسات منها: البرلمان، والقضاء النزيه، والصحافة الحرة، والقوانين والأنظمة ذات الرؤية السليمة.

ثم ينتقل المؤلف لبيان أهمية المقصد الثالث، الذي يُعدّ من أميز سمات الجنس البشري، وهو العقل، ليكشف تلازم الوحي والعقل في تحقيق التنمية والفلاح الإنساني.[٢٢] فالرؤية الإسلامية للتنمية لا تكون إلا بإعمال العقل وتحريكه، وقد رسم الوحي الصحيح توجيهاته، ودون هذه الخطوط ينجرف العقل إلى سبل الغش واستغلال الغير، وابتداع ما يعود على البشرية بالدمار، كما نجده في كثير من أحوال هذا العصر. من هنا كان من ضرورات التنمية المستدامة والفلاح الإنساني التلازم بين الوحي والعقل ضمن منهجية تكاملية، سعياً لإعمار هذا الكون.

وللعقل في ظل الوحي دور مهم في ممارسة الاجتهاد، فكل حُكمٍ أو تفسيرٍ لا يتلاءم مع المقاصد، أو قد يؤدي إلى نتائج تُغيّر الفلاح الإنساني بحاجة إلى إعادة نظر متأنية

[٢٠] المرجع السابق، ص٥٥-٥٧.
[٢١] المرجع السابق، ص٥٧-٥٩.
[٢٢] المرجع السابق، ص٦٠-٦٦.

لتعديله أو إلغائه، ولتحقيق هذا كان لا بدّ من وجود نظام تعليمي يجمع بين تدريس العلوم الحديثة إلى جانب العلوم الدينية، وتدريب الطلاب على التفكير والتحليل للنصوص بتعقّل في ضوء المقاصد.

ويتحدث المؤلف في المقصد الرابع: إثراء النسل[٢٣] عن جملة من القضايا التي من الضروري ملامستها لتحقيق الفلاح الإنساني والتنمية المستدامة، فالتنمية الأخلاقية مهمة من المهمات التي لا بدّ من تعاهدها في تنشئة الأجيال القادمة، لحفظ الأمة واستمرارها في أجيالها، وهذا دور تتحمله الأسرة؛ فهي المدرسة الأولى للتنشئة الأخلاقية لدى الأجيال، من هنا كان بناء الأسرة غاية في الأهمية، فوجود الأبوين الصالحين يجعل في الأسرة مثالاً يحتذى به، فيتربى الأطفال في بيئة صحية سليمة، تسعى لتنمية فكرهم السليم، ومن هنا فإن من الضرورة بمكان إيجاد المعاهد العلمية من مدارس وكليات وجامعات، تتعهد في برامجها التعليم السليم الذي يسعى للتنمية الأخلاقية والاقتصادية والفكرية.

وفي إنشاء الجيل لا بدّ من السعي إلى إشباع الحاجات الفطرية وتهيئة البيئة الصحية لرعاية الأطفال وفقاً للمنهج الإسلامي الرشيد، وحتى تؤتي هذه التربية أكلها، وتنمو ثمارها لا بدّ من التحرر من الخوف والصراعات، وتحقيق الأمن بمفهومه الشمولي.[٢٤]

وختم المؤلف كتابه بما ختم به الغزالي قائمة المقاصد؛ المال، وهذا لا يعني بالضرورة أنه الأقل أهمية، بل إن غيابه بالضرورة ينعكس على المقاصد الأربعة الأخرى، فلا بدّ من اكتسابه وتحقيق القوة التي تتوفر فيها ضمانات الفلاح العام للجنس البشري.[٢٥]

والرؤية الإسلامية للمال تنطلق من أن الزهد في الحياة ونكران الذات أمر مرفوض ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ (الحديد: ٢٧)، والمال أمانة من عند الله أودعها في أيدي الناس، وعليهم تنميته واستخدامه في تحقيق الحياة المريحة، سعياً للفلاح الإنساني الذي يعم كل الأفراد بتوزيع عادل للدخل

[٢٣] المرجع السابق، ص٦٦-٧١.
[٢٤] المرجع السابق، ص٦٦-٧١.
[٢٥] المرجع السابق، ص٧٢-٧٧.

والثروة، ولا يخص فئة دون أخرى. وهنا تراعى مرة أخرى القيم التي رسخت في مقصد حفظ الدين، ولا يقتصر الإسلام في توزيعه العادل للثروة على الزكاة، فتقع المسؤولية على كواهل الأغنياء فحسب، بل يسعى الإسلام إلى التنمية الاقتصادية الشاملة، وكذا دعم المشاريع التنموية الصغرى، وذلك لتوسيع دائرة العمل وفرص التوظيف الذاتي للفقراء. إن الخروج من حالة الفقر أمر مهم جداّ، ولا يكون ذلك إلا بالسعي لتكوين الثروة المالية لهؤلاء الفقراء، وتأهليهم للإنتاج وعدم انتظار المنح والعطايا، ضمن رؤية متوازنة شاملة.

بعد هذه الجولة في استعراض ما تناوله الكاتب في الرؤية الإسلامية للتنمية في ضوء المقاصد الإسلامية، نورد ملحوظتين:

الملحوظة الأولى: غلبت المقاصد على الرؤية الإسلامية للتنمية، وكان الحديث عن المقاصد المعبّرة عن الرؤية، وكنت أود أن يكون الحديث عن الرؤية عبر المقاصد. من هنا جاء تقسيم الكتاب تبعاً للمقاصد لا الرؤية، ولعلنا نقترح أن يتم التفكير في تنظيم آخر للموضوع يعطي الألوية للرؤية الإسلامية للتنمية، وعدم فرض الشخصية المقاصدية عليها. وبناء على التصوّر الذي انطلق منه المؤلف جاء التكرار في كثير من الموضوعات، ذلك أن إفراد الحديث عن المقاصد المنتجة للرؤية جعل الكتاب يكرر الحديث عن بعض المفردات؛ فترى تكرار الحديث عن القيم في حفظ النفس والنسل والمال، وتكرار الحديث عن الحوكمة الراشدة ودور الدولة، وترى الحديث على التعليم تكرر في أكثر من موضع، وغيرها من الموضوعات.

الملحوظة الثانية: قدّمت الدراسة رؤية تنظيرية تصوّرية للمنظور الإسلامي في مسألة مهمة هي مسألة التنمية ضمن الإطار المقاصدي، ومن المفيد أن يستمكل الموضوع بإبراز التعالق العملي والبرامج والمشاريع العملية التي تقوم بها المؤسسات أو الحكومات.